

نبذة عن حياة المولي المصالح سيدي أحمد بن يوسف

شخصيته :

شخصية صوفية من القرن العاشر الهجري يعتبر المولي المصالح سيدي أحمد بن يوسف من بين الأولياء الذين ذلوا شعبية واسعة في شمال إفريقيا.

و خاصة في أوساط سكان نواحي العاصمة و الجنوب الموهرائي و بعض مناطق المغرب الأقصى حيث كان ينسب إليه كرامات ومجموعة من الأقوال حول البلدان و المدن و القبائل المختلفة كان له تأثير كبير بالمغرب بفضل عمله و نشاطه السياسي الهام أثناء حكم العثمانيين بالمغرب .

حياته و أعماله :

وُلد أحمد بن يوسف بقلعة بني راشد بجبال بني شوقران جنوب شرق مدينة معسكر في أواسط القرن الخامس عشر 1435 و ينتمي إلى عائلة بني مرين الزناتية جاءت من مراكش لتقيد بجوار قبائل هوارية التي كانت تتمتع بشهرة كبيرة بغرب المغرب الأوسط. و إسم أحمد بن يوسف الكامل هو أبو العباس أحمد بن يوسف المريني (نسباً) و الهواري (داراً).

و الراشدي (نشأة) و الملباني (وفاة) ابن محمد . وكان يعرف باسم سيدي أحمد بن يوسف ، تخرج أحمد بن يوسف من مدرسة تلمسان الفكرية في أواخر القرن التاسع الهجري و هي مدرسة محمد السنوسي ثم أصبح من تلاميذ الشيخ أحمد زروق البرنوصي ببجاية المتوفى بطرابلس سنة 1494م و الذي كان بمثابة مرشده الروحي حيث أرشده إلى الطريق الشاذلي .

و لعل أحمد بن يوسف هو أكبر شخصية صوفية خصصها المؤلفون بالدراسة و تأليف الأشعار أهمها تأليف تلميذه محمد المصباح القلعي التي أصبحت مصدرا لكل الدراسات عن شخصيته و حياته الصوفية عموما في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري . و تأليف الشيخ علي بن أحمد بن حاج موسى الجزائري في القرن التاسع عشر . و من مؤلفاته كتاب " رسالة في الرقص و التصفيق و الذكر في الأسواق " .

و عندما رجع أحمد بن يوسف إلى موطنه الأصلي تزوج مرارا و أقام زاويته برأس الماء و التفت حوله جموع غفيرة من الموردين الذين تحمسوا لإتباع طريقته و بلغ عددهم 80.000 مورد ، و إشتهرت زاويته إشتهارا فائقا حتى قيل عنها كمركب سيدنا نوح من دخلها فقد سلم من كل سوء .

و انتشرت طريقة أحمد بن يوسف الشاذلية في الجزائر و في المغرب الأقصى بسرعة أثناء حياته - و قال : إن الله قد أعطاه علم الظاهر و الباطن و طلب من الله تحقيق ثلاثة أمور فحققها له في ليلة واحدة و هي العلم بدون مشقة و بلغة فوق مبلغ الرجال و أراه الرسول صلى الله عليه و سلم في اليقظة نا في المنام - و قد اضطهد اتباع أحمد بن يوسف و تعرضوا للمضايقة في المغرب الأقصى و الجزائر من الزيانيين .

و خشيت الدولة الزيانية من اتساع نفوذ الشيخ أحمد بن يوسف . فأمر السلطان بقتله ، و كانت عامل وهران قائد هوارية و أمر بالرحيل ، فلما ارتحل من موطنه ليقيم زاويته بهليل بين قبائل بني أردو قال : " شوشوا علينا يشوش الله عليهم من البر و البحر " فلم

يمضي إلما قليل حتى أخذ المسبان وهران و الأتراك تلمسان . و قد هز الشيخ أحمد بن يوسف كيان الدولة الزيانية بالتجمعات مع أتباعه التي كان يعقدها برأس الماء و وهران و تلمسان و اشتد الخلاف بينه و بين الزيانيين ، مما اضطر كل من الملك أبو عبد الله (1505-1516) و أبو حمو (1516-1528) وضعه تحت نفوذهما و حاولا حبسه و اغتياله و حرقه و لكن لم تلتهمه و خرج منها سالما و دعا عليهم من جديد بتخريب ملكهم .

و لعب الشيخ أحمد بن يوسف دورا سياسيا هاما خلال هذه الفترة , حيث كلنت له اتصالات مع العثمانيين قبل 1517 و خاصة مع عروج الذي المتقي مع الشيخ سرا بغرب الجزائر و اتفق معه في عدة أمور ضد مملكة تلمسان و قد أثمر هذا الإلتصال بتحالف و تأييد المتزم به الطرفان طيلة العهد العثماني -و كرم خير الدين باروس أحمد بن يوسف في عدة مناسبات بإرسال هدايا ثمينة باركة الشيخ عليها كثيرا . كما كان الشأن بالنسبة لإبنة محمد بن مرزوقة و اعترف به كخليفة لوالده في رئاستة الطريقة الشاذلية و نشر دعوتها -و ظلت هذه العلاقات سائدة بين العثمانيين و أهل الطريقة الميوسفية حتي نهاية العهد التركي بالجزائر .

توفي أحمد بن يوسف بضواحي قرية المخربة بسهل المشلف في صفر 931هـ 25/1524 عند خروجه من تلمسان قاصدا الشرق و حملت جثته على ظهر بغلة و تابعت سيرها إلما أن توقفت بأحد أحياء مدينة مليانة أين كان مثواه الأخير .

وصف الضريح :

يقع ضريح المولى المصالح أحمد بن يوسف بمدينة مليانة جنوب غرب الجزائر العاصمة , و هو عبارة عن مبني قديم يحتوي علي صحن مربع محاط بثلاثة أوراق مكونة من عقود ترتكز على أعمدة و بوسط الصحن توجد نافورة ماء زادت المبني جمالا .

أما قاعة المصريح فهي ذات شكل مربع مغطاة بقبة ثمانية الأضلاع ترتكز على ثمانية أعمدة . و تكسو الجدران مجموعة من البلاطات الخزفية ذات الألوان والأشكال المختلفة الرائعة . و يتوسط القاعة قبر المولي محفوظا بتابوت خشبي مزخرف.

متي بني المصريح و من أمر ببنائه ؟

إذا اتمدنا على المعطيات المعمارية و الفنية التي يتميز بها ضريح أحمد بن يوسف ندرج بكل وضوح أنه يرجع إلى العهد العثماني حيث قام ببنائه محمد الكبير باي وهران في أواسط القرن الثامن عشر . كما تم العثور بالمصريح على لوحة تذكارية تحمل تاريخ بناء المصريح و هذا نصها زاوية الشيخ المجاهد في سبيل الله القطب الجليل سيدي أحمد بن يوسف 1192هـ/1774م.

المصريح و مكانته الاجتماعية : □ □ □

يعتبر ضريح أحمد بن يوسف مركزا شعائريا هاما لمدينة مليانة فهو يعد بمثابة النواة الرئيسية أين تكمن روح العادات و التقاليد الشعبية للمنطقة و مازالت زاوية أحمد بن يوسف بمليانة تستقبل جموع الزوايا الوافدين إليها من كل حدب و صوب لزيارة قبر المولي المصالح . و في هذا السياق يضيفنا الدكتور شاوو بقوله : "...و في فصل الربيع يقدم اليها (أي مليانة) من الجزائر و البلدية و النواحي الأخرى جموع الزوار ليتبركون بوليها المصالح سيدي أحمد بن يوسف".

□ □

و ينسب إلي المضريح عادات إجتماعية و شرعية و دينية مازال أهل مليانة و بعض النواحي من البلاد متمسكين بها .

أ □، العادات الإجتماعية : تذكر صلوات الجنائز و إيقام حفل الإختتان و الأعراس

ب □ □، العادات الشرعية : أداء القسم □ □ □

ت □، العادات الدينية : تتمثل في الإحتفال بالمولد النبوي الشريف و الركبان الموسمية و هذه العادة تعتبر من أقدم العادات الشعبية التي نسبت للمضريح حيث تنظم كل سنة تبركا و تكريما للمولي المصالح سيدي أحمد بن يوسف.

و من أهم هذه الركبان نذكر :

-ركب بني فرح المواضد من دوار العناب و دوار بني غمريان و دوهلال بنواحي شرشال في نهاية موسم الربيع

-ركب بني مناصر يشمل ذواحي بن عدلال و عريب و عين الدفلى .

و بهذه المناسبة كانت تقام الأفراح طيلة ثلاثة أيام في جو حماسي بهيج حيث تزين ساحة المضريح و شوارع المدينة يقدم بائع الحلويات و الموسيقيون بألاتهم التقليدية و الفرسان بخيولهم و بنادقهم - و من مدخل المدينة يسير جميع الزوار في موكب رائع نحو ضريح سيدي أحمد بن يوسف حاملين البنود و مهللين قصائد دينية .

و بداخل المضريح تلتفت النساء حول المتابوت و يتشبكن بغطائه الحريري و يتمتمن عبارات من الدعاء توسلا بالدولي المصالح ثم يقدمن هدايا أو نقود للوكيل ، و بجنبه جماعة من حفاظ القرآن الكريم يتلون آيات من المصحف الشريف .

هذا بإيجاز عن مشاهد المخرج عند حلول موسم الركبان .

و مازالت مدينة مليانة تسطع بنورها على المنطقة فضلا عن وجود ضريح سيدي أحمد بن يوسف كمركز ديني يستقطب إهتمام

المزار الذين يقودونه طول السنة .